٩

حياة الإمام محمد بن عبدالله الخليلي وسيرته: مقدمة عامة

د. مبارك بن عبد الله الراشدي
كلية التربية
جامعة السلطان قابوس
sinawcc@sinawcc.org

الإمام محمد بن عبد الله الخليلي من أشهر أئمة عمان وأعدلهم. فقد تولى الإمامة عقب مقتل الإمام الرضي سالم بن راشد الخروصي (١٣٠١- ١٣٣٨ هـ) بترشيح من علماء عُمان آنئذ وعلى رأسهم رئيس قضاة الإمامة عامر بن خميس المالكي، والعالم ماجد بن خميس العبري. حيث اتفقت الكلمة على تنصيبه إماما فأبى في بداية الأمر، إلا أنه وافق نزولا عند إصرار العلماء على إمامته لما توسم فيه وعرف به من صلاحية وتأهل لهذه المهمة الشاقة، وفي تلك الظروف الصعبة. وكانت مدة إمامته أربعاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً. وتعتبر إمامته من أنجح الإمامات في تاريخ عمان، وبانتهائها انتهت الإمامة كمؤسسة تدير الأمور وكنظام سياسي مستقر، ولو أنها بقيت بعد ذلك سنتين ولكن مع اضطرابات واختلافات ثم انتهت، وبقيت تجربة عربية إسلامية في صفحات التاريخ. ومن أبرز ما قام به الإمام بعد توليه الإمام التوقيع على معاهدة السيب ١٩٢٠م. كما حاول بكل ما أوتي من جهد، وبمؤازرة العلماء المحيطين به، أن يحافظ على الإمامة على عمان كلها ما عدا مسقط وشمال الباطنة.

ولد الإمام محمد بن عبد الله الخليلي بولاية سمائل. ويقال كان مولده في قرية (سحراء) في سنة ١٢٩٩ للهجرة[١]. ونشأ الإمام في بادئ الأمر في حجر أبيه العلامة عبد الله بن سعيد بعلاية سمائل، ثم تحول للسكن في وادي محرم وعاش فيه حتى بويع بالإمامة، ولا يزال منزله قائماً بوادي محرم. وانتقل الإمام إلى رحمة الله يوم الاثنين ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م، ودفن في مقبرة الأئمة

١) السالمي، محمد: نهضة الأعيان، ص٣٢٣؛ والسرحني، إسماعيل: قلائد المرجان، ص٤٦.

بنزوى[1]، ما بين قبري الإمام ناصر بن راشد والإمام سيف بن سلطان اليعربي.

نُسب الإمام محمد بن عبد الله الخليلي إلى عائلة عريقة تولت مناصب في الحكومات السابقة، بالإضافة إلى مكانتها العلمية والأدبية. ونسبه كما ورد ذكره في كتاب (نهضة الأعيان بحرية عمان) "هو العلامة المحقق محمد بن عبدالله بن سعيد بن خلفان بن أحمد بن صالح بن أحمد بن عامر بن ناصر بن عامر بن بوسالم بن أحمد، من نسل الإمام الخليل بن عبدالله بن عمر بن محمد بن الإمام الخليل بن العلامة شاذان بن الإمام الصلت بن مالك بن بلعرب الخروصي نسبة إلى خروص بن شاري بن اليحمد بن عبدالله، وعبدالله هو الحمى من سلالة نصر بن زهران بن كعب بن حارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر بن أزد بن نبت بن مالك بن يزيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود النبي، عليه الصلاة والسلام. هذا نسبه، وقد كتب نقلا من خط الشيخ خلفان بن عثمان الخروصي عن خط جده الشيخ خميس بن العلامة أبي نبهان جاعد بن خميس الخروصي". ويتضح مما سبق انتماء الإمام إلى عائلة لها جذورها في تولي مناصب الإمامة والقضاء، ونبوغها في العلم وتفقهها في الدين[2].

وأما عن نشأة الإمام العلمية، فقد كان جده، الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي وزيراً في إمامة الإمام عزان بن قيس، رحمه الله، وكان من أهل الحل والعقد، يطلب المعالي، وكثير الخلوة والتبتل والتلاوة. كما كان عالما محققا، ألّف عددا من الكتب منها (النواميس الرحمانية في تسهيل الطريق إلى العلوم الربانية)، وقصائد جمة في السلوك، ومناظيم في فتوحات الإمام عزان بن قيس، وأجوبة ومسائل نظماً، وألفية في الصرف سماها (المقاليد)، وقصيدة في العروض سماها (مظهر الخافي المضمن الكافي في علم العروض والقوافي)، و(أرجوزة في الزكاة شرحها)، ورسالة سماها (السيف المذكر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وكتاب (التمهيد) وهو أجوبة وردت إليه في مختلف فنون العلم في أربعة أجزاء ضخمة، وكتاب (كرسي الأصول).

---

١) غباش، حسين: عمان: الديمقراطية، ٢٩٢ – ٣٤٩؛ دليل أعلام عمان، ص ١٤٧: الفارسي، ناصر: نزوى عبر الأيام، ص ٢١٠-٢١٢.

٢) السالمي، محمد: نهضة الأعيان، ص ٣٢٣؛ والسرحني إسماعيل: قلائد المرجان، ص ٤٦.

فأثر ذلك الجو العلمي في نشأة والده عبد الله وعمه أحمد. فقد كان والده كثير الاطلاع على فنون العلم، كثير قيام الليل، وهو الأمير والسيد المطلق في وادي سمائل، وتولى شؤون قبيلة بني رواحه. كما أنه كان عالماً بفنون الأدب، واتسم بعبقرية شعرية أنتجت له ديوانا ضخما في الحماسة والفخر والغزل والنسيب، لكن يذكر أن ابنه الإمام محمد مزق هذا الديوان، ولم يبق منه سوى ما تداولته ألسن الناس. بالإضافة إلى ذلك تأثر الإمام الخليلي في نشأته بعمه العلامة أحمد. فقد كان عمه فقيهاً ورعاً، عليه مدار الفتيا والقضاء بوادي سمائل، وله أجوبة مسائل نظماً ونثراً، وكان شهماً جريئاً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في وقت الكتمان ولا يرد أمره[١]. كل هذه العوامل، وغيرها، أسهمت في نشأة الإمام الخليلي نشأة طيبة قادرة على قيادة إمامة أهل عمان.

وتعلم الإمام الخليلي النحو على يد الشيخ محمد بن عامر الطيواني، وكان يجالسه للمذاكرة البحر الأسود الشيخ عبيد بن فرحان والشيخ العلامة حمد بن عبيد السليمي، ويناظرهم الشيخ أبو وسيم خميس بن سليم الأزكوي. ودرس الإمام محمد فنون العلم على عمه الشيخ العلامة أحمد بن سعيد وأبيه الشيخ الأديب عبد الله بن سعيد الخليلي. ويظهر من ذلك أن الإمام تلقى علوم اللغة العربية والعلوم الفقهية ومختلف فروع العلم منذ طفولته، ثم هاجر بعد ذلك إلى شرقية عمان لتكملة مشواره العلمي فقرأ على الشيخ نور الدين السالمي التفسير والحديث والأصول وفنون العلم، وبذلك أصبح علماً من الأعلام وحجة في المعقول والمنقول والمنثور والمنظوم[٢].

وكان الإمام الخليلي، رحمه الله، من كبار العلماء في عمان، ومرجعاً للفتوى، حتى أن كبار العلماء كانوا يرجعون إليه في حل العويص من المسائل[٣]. ويتبين مما أفتى به الإمام في الكثير من المسائل الدينية، والجوابات التي نظمها، وفي ردوده التي تستند في أدلتها على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والقياس وغيرها من المصادر، مكانته العلمية بين العلماء. وقد أثر عن الإمام

١) نهضة الأعيان، ص٣٢٦.
٢) المرجع السابق، ص ٣٢٣-٣٢٦.
٣) مدرسة الإمام ص ٩٧.

كتاب في الأجوبة الفقهية، نشر بعد وفاته بعنوان (الفتح الجليل في أجوبة الإمام أبي خليل).

وللإمام الخليلي آراء معروفة في الأحكام تفرد بها وخالف بعضها أصحابه المشارقة، بل جمهورهم، ورجح بعض الأقوال في المسائل. فعلى سبيل المثال، يرى الإمام أن من كان ماله عبيدا فأعتقهم في مرضه أو أوصى بعتقهم كلهم، فيعتق منهم الثلث بالقرعة ويسترق الباقون عملاً بالحديث الوارد في ذلك ويدفع بها في صدر القياس.

وقد قال الإمام نور السالمي عن الإمام الخليلي عندما كان لا يزال طالباً عنده: "الشيخ محمد بن عبد الله الخليلي ليس بأقل درجة من جده العلامة: سعيد بن خلفان الخليلي، وهذه شهادة من قطب من أقطاب العلماء"[1]. وقال عنه العلامة محمد بن عبد الله السالمي: "إن الإمام محمد بن عبد الله الخليلي أعلم الجماعة الذين معه، وكذلك أعلم من العاقدين عليه، مع العلم بأن العاقدين عليه كانوا من كبار العلماء"[2]. وقال الشيخ سعيد بن حمد الحارثي عن الإمام الخليلي: "وكثير ما كان يجيب الإمام إما ببيت شعر أو بآية قرآنية أو بحديث نبوي أو بقصة أو مثل سائر، ولا يعلق عليهن بشيء"[3]. فعندما كتب إليه بعض القضاة يشتكي سوء حاله، كتب إليه الإمام قائلا:

شكا إلي جملي طول السرى صبرا جميلا فكلانا مبتلى

وكان الإمام شديد الاهتمام بنشر العلم وتعليمه للناشئة. فأنشأ مدرسةً في أول وهلة من قيام الإمامة على يديه، أي بعد توليه زمام الأمور في البلاد سنة ١٣٣٨هـ، وكان هو المشرف العام لهذه المدرسة، حيث يقوم بالإشراف على حلقات العلم ويعينه بعض المدرسين من ذوي الكفاءة العالية المتحلين بصفات جليلة. وتخرج في هذه المدرسة الكثير من الطلبة الذين شهد التاريخ بجهدهم في نشر العلم والدين في هذا الوطن.

---

١) أحمد بن سعود السيابي، مقابلة شخصية بتاريخ ٢٠٠٢/١/٨م، مسقط.
٢) السالمي، محمد: نهضة الأعيان، ص٣٠١.
٣) الحارثي، سعيد: اللؤلؤ الرطب ص ٢٢١ غير مطبوع.

ويتضح منهج الإمام التربوي ونظرته إلى العلم من الوصايا التي كان يوصي بها طلبة العلم، فقد أوصى سيف بن عبد العزيز قائلا: "كن ممن تشجع بالعلم وادخل في الدين برفق ولا تشاده هذا ما أراه أيها الولد"[١]. وفي موقفه من تعلم اللغات الأجنبية، قال الإمام: "أما إيجاب تعلم لغة أوربة أو منعه كل ذلك مجازفة من قائله، فما كان فيه مصلحة للدين أو للدنيا ولم يكن محرماً في الدين تعلمه حسن جميل، وقد يكون واجباً إن أفضى تركه إلى خلل كتعلم الصنائع الحربية لمن قدر وتمكن فإنه داخل تحت قوله تعالى: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا استَطَعتُم مِّن قُوَّة وَمِن رِّبَاطِ الخَيلِ)[٢]. وكان الإمام يتعاهد طلبة العلم بنفسه، ويسألهم عن حالهم ويزور المريض منهم، بل يقوم بعلاجه بنفسه، ويرغبهم في طلب العلم النافع، ونصب لهم المعلمين وينفق عليهم، ثم يختار الأكفأ منهم للقيام بالأعمال مثل القضاء والولاية والكتابة وجباية الزكاة وغير ذلك مما يخدم المصلحة العامة ويقوِّم المجتمع.

وكان الإمام محمد بن عبدالله الخليلي قبل ارتقائه عرش الإمامة في رغد من العيش؛ حيث كان غنياً متأنقاً في اللباس والمأكل والمشرب؛ ذلك لأنه ورث عن آبائه ثروة كبيرة، إلا أنه لما تولى أمر المسلمين رغب عن ذلك كله إلى الزهد والتواضع، وباع أصول أمواله وأنفقها في خدمة الشعب، رضي الله عنه، على سيرة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسيرة خلفائه الراشدين وأصحابه الكرام، رضي الله عنهم وأرضاهم. وليس هذا فحسب، بل كان كثير صيام التطوع، يصوم الأيام ويفطر على التمر والسمك اليابس (العوال). وابتلاه الله بضعف البصر، فبقي خمسة أشهر مكفوفاً؛ وتطلب ذلك إحضار الطبيب من مسقط لعلاجه فأبصر من إحدى عينيه إثر إجراء عملية جراحية[٣].

والإمام "ملك الناس بالمحبة والسياسة واللين وطيب الخلق لا بالقوة والجبروت"[٤]. فكان يخالط الناس جميعهم ويباسطهم ويعلمهم أمر دينهم ودنياهم، ويقضي وقته في خدمتهم وقضاء حوائجهم بغض النظر عن السن

١) الخليلي، محمد: الفتح الجليل ص ٧٣.
٢) سورة الأنفال الآية ٦٠.
٣) الخليلي، محمد: الفتح الجليل، ص ٣٢٥؛ والسرحني، إسماعيل: قلائد المرجان، ص ٤٨.
٤) السالمي، محمد: نهضة الأعيان ،ص٣٢٤؛ والسرحني، إسماعيل: قلائد المرجان، ص٤٦.

والجنس. كما كان شديد الفراسة، ينظر بنور الله يصدق عليه قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[1]. وعندما يرتج على محدثه فلا يستطيع التعبير عما في نفسه يعبر عنه الإمام بعبارة وجيزة مفهومة. وكان الإمام أكرم أهل زمانه؛ لا يرد سائلاً ولا مسترفداً، ويسلي الموجع ويؤثر الآخرين على نفسه. كما كان واسع الصدر وحمولا للأذى، مبتعدا عن التبرم والضجر والغضب إلا إذا انتهكت محارم الله. ولا ينتقم الإمام من عدوه؛ وذلك لما تعلمه من سماحة الإسلام ولمقدرته على العفو[2].

المراجع:

- الحارثي، سعيد بن حمد: اللؤلؤ الرطب (د.ن، د.ط ، د.ت).
- الخليلي، محمَّد بن عبد الله: الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل، المطبعة العمومية، دمشق، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
- السالمي، محمد بن عبد الله: نهضة الأعيان بحرية عمان، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٠.
- السرحني، إسماعيل بن إبراهيم: قلائد المرجان في ذكر السيرة العطرة لأئمة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، ١٩٩١.
- غباش، حسين عبيد غانم: عمان الديمقراطية الإسلامية تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث (١٥٠٠ –١٩٧٠)، ط١، دار الجديد، بيروت، لبنان، ١٩٩٧.
- الشكيلي، إبراهيم بن محمَّد: مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي وأثرها في نشر العلم، ط١، فؤاد البعينو للتجليد، بيروت، لبنان، ٢٠١٣م.

١) رواه الترمذي في (جامعه)، الترمذي (٣١٢٧) وغيره.
٢) السالمي، محمد: نهضة الأعيان، ص ٣٢٥.